مُهِمَّاتٌ تربويَّة

رمضان ١٤٤٦ من الهجرة النبوية

تقديم

أنا هيد بنت عيد السمبري

غفر الله لها ولوالديها

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

اللقاء التاسع يوم الأحد 9 رمضان

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله، توكلنا على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله. نبدأ في لقائنا هذا في تذكير أنفسنا بشأن عظيم من شؤون هذا الدين، ألا وهو الرغبة في العافية، فرب العالمين قد خلق الإنسان وابتلاه، وهذا الابتلاء يتطلب منه أن يكون يقظًا دائمًا، راغبًا فيما عند الله، ومن هذه اليقظة ومن آثارها: أن يكون الإنسان راغبًا في العافية، راغبًا أن يعفو عنه ربه، ويعافيه في بدنه وقلبه، مشغولًا بخطر الفتن على دينه، يرى أن دينه رأسماله في حياته، فيخشى على دينه ويخاف عليه، فيطلب دائمًا لنفسه العافية.

نسأل الله أن يرزقنا العفو والعافية، ولتحقيق العافية في الدين والدنيا معًا لا بد للإنسان من أن يتمسك بحبل الله المتين، ويعتصم به، حبل الله الذي مدّه من السماء إلى الأرض، حبل الله القرآن الذي أُمرنا أن نعتصم به. نتمسك بهذا الكتاب وننزع منه ما يكون سببًا لعافيتنا ونربي أنفسنا

عليه. اليوم، معنا سورة عظيمة من سور القرآن تنبهنا على شأن من الشؤون الإسلامية المهمة التي تكون بها عافية الأفراد وعافية المجتمع.

سورة الأنفال مدنية نزلت بعد غزوة بدر التي كانت فاتحة الغزوات في تاريخ الإسلام وبداية النصر لجند الرحمن، حتى أن بعض الصحابة سمى سورة الأنفال بسورة بدر، وسماها الله -تعالى- في القرآن بالفرقان؛ لأن فيها نزلت الآيات التي تصف هذه الموقعة العظيمة بإسهاب، وخبرت المؤمنين على مدى الزمان كيف كانت الخطة التفصيلية للقتال، وبينت ما ينبغي أن يكون عليه المسلم من الشجاعة والجراءة والصمود. غزوة بدر كان عدد المسلمين فيها لا يتجاوز الثلاثمئة وثلاثة عشر مؤمنًا، مقابل ألف من المشركين، ومع قلة العدد انتصر أهل الإيمان بعون من الله، وسيحكي لنا رب العالمين هذا الأمر لنفهم شأنًا أكبر من هذا الشأن، وهو في حياتنا كلها: ما مقدار حساب موضوع الأسباب؟ إلى أي درجة نحسب هذا الموضوع؟ وهذه النقطة سيكون عليها تركيزنا.

سنتكلم بالإجمال ونناقش هذه النقطة على وجه الخصوص؛ نقطة الأسباب. ينتصر المسلمون على المشركين وعددهم ثلاثمئة وثلاثة عشر في مقابل ألف من المشركين.

وهذه كانت أول معركة بين الحق والباطل في تاريخ الإسلام، وحين ننظر في ترتيب المصحف سنرى أنه سبقت الأنفال سور طوال، جاءت سورة الأنعام التي تصف حقيقة التوحيد الخالص لرب العالمين، ويأتي بعدها سورة الأعراف التي فيها أخبار عن حقيقة الاستقامة والالتزام بأمر الله (اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ) حقيقة التمسك بحبل الله. سبق الكلام عن التوحيد لله، وسبق الكلام عن التمسك بحبل الله، ثم جاءت سورة الأنفال ليبين الله لنا أن هذا المنهج (التوحيد والتمسك بحبل الله)، حتى ينتصر يجب أن يكون له قوانين للنصر. فالنصر لا يأتي صدفة ولا فجأة وإنما يحتاج إلى بيئة ووضع. وهذه القوانين قوانين ربانية في الأصل، النصر من عند الله، ويتبعها قوانين من سنن الله أيضًا، توجد قوانين ربانية يجب أن تكون على البال: أن النصر من عند الله، وهناك قوانين من سنن الله،

وهذه القوانين فيها الاستعداد للبذل والتهيئة النفسية للبذل في سبيل الله، البذل من كل أحد يستطيع أن يبذل.

هذه السورة سميت سورة الأنفال لأن في مطلعها الكلام عن الأنفال وهي الغنائم. وبعد انتصار المسلمين حصل ما يحصل بين الناس عمومًا، في كونهم اختلفوا كيف توزع هذه الغنائم، فأراد -عزَّ وجلَّ-، أن ينبههم أن الغنائم من الدنيا والاختلاف على الغنائم ليس له شأن. وبهذا يبدأ تربية أهل الإيمان، تنشئة الإنسان الرباني، يجب أن يترسخ في قلبه أنه ينصر دين الله، بعيدًا عن الدنيا ورموزها، وأن قضية الأنفال قضية فرعية أمام القضية المهمة؛ قضية الإيمان والتقوى، رب العالمين قد حسم الأمر وقسمها.

فنعود إلى شأن الإيمان العظيم، الذي هو أساس كل خير وعزة لأهل الإسلام، وهذه من المهمات التربوية: أن نفهم أن أصل عزة أهل الإيمان إنما هي بالإيمان. وتصور أنه بعدما بيّن -عزَّ وجلَّ-، أن هذه الأنفال أمر يسير وسهل، وأنها من الدنيا وأنها لا تحتاج إلى جهد. أتى الكلام عن صفات

المؤمنين، وهنا سنلحظ أمرًا لطيفًا جدًا. سنلحظ أن السورة انقسمت إلى قسمين:

قسم يتكلم عن أن النصر إنما هو من عند الله.

وقسم يتكلم أن هناك سنن لله في النصر.

في القسمين أتى وصف للمؤمنين وأتت كلمة (أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا) من الآية الثانية إلى الرابعة، وفي الآية الرابعة والسبعين. في الآية الثانية إلى الرابعة (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (3) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)، وفي ختام السورة في الجزء الثاني من السورة، يأتي الكلام أيضًا عن هؤلاء المؤمنين وأوصافهم. الجزء الأول من السورة يقول: الإيمان، والجزء الثاني يقول: هناك سنن كونية للرحمن. ففي الجزء الثاني في الآية (74) نجد قوله تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ). فرق بين

الصفات وهذا الفرق يبين متى ستكون العزة للمؤمنين، إذا جمعوا بين الصفات الإيمانية، في مطلع السورة وهي صفات إيمانية يتحلى بها المؤمنون الذين يثقون بالله وبقدرته وبأن النصر من عنده، وفي القسم الثاني تأتي السنن الربانية. جاءت الصفات التي تمثل الأفعال التي بها تحصل عزة هذا الدين. فهناك سنن ربانية وهناك إيمان برب العالمين. وقد جاءت في سورة الأنفال نداءات إلهية للمؤمنين ست مرات: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)، هذا يؤكد أن الإيمان أصل كل خير. ولا تظن أن الإيمان سيجعلك درويشًا أو تاركًا للأسباب، وإنما الإيمان يجعل السنن الربانية في مكانها وفي وضعها، وهذه السنن الربانية موجودة أمامك، وسيظهر واضحًا، وهو من المهمات التربوية، أنك حين تملأ قلبك إيمانًا وتسير على السنن الربانية، والمقصود بها الكونية، التي وضعها ربنا في الكون، سيجعل في هذه السنن الكونية بركة وأثرًا فوق ما تتصور؛ لذا لو لاحظنا الست نداءات التي كان فيها (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)، كلها كانت محفزة على الصبر والثبات، وبينت أن هذه التكاليف التي أمروا بها من مقتضى الإيمان.

يخاطبهم رب العالمين بقوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ) هذه سنة إيمانية كونية، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) الإيمان الذي في قلبكم يوجب عليكم أن تقابلوا عدوكم وألا تولوا عدوكم الأدبار، يجب أن تواجهوهم.

من ذلك أنه أمرهم بالسمع والطاعة لأمر الله وأمر الرسول: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ).

أيضًا يناديهم ويبيّن لهم رب العالمين أن ما يدعو إليه الرسول هو العزة والسعادة في الدنيا والآخرة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) وهذا كان النداء الثالث.

وأتى النداء الرابع في الآية (27) في بيان فظاعة إفشاء سر الأمة للأعداء، وأنه خيانة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ).

وأتى في الآية (29) بيان كيف سيكون للإيمان والتقوى ثمرة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ).

وأتى النداء السادس والأخير في الآية (45) يبيّن طريق العزة وأساس النصر وهو الثبات والصبر واستحضار عظمة الله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).

إذًا الإيمان أساس النصر، أساس الوصول إلى العزة في الدنيا، وهذا يترتب عليه أن تأخذ بالسنن الكونية، الربانية التي وضعها الله في الكون، تأخذ بهذه السنن الكونية الربانية، وستجد بسبب الإيمان أن هذه السنن يكون لها شأن عظيم.

ولننظر هذا في مطلع السورة أو في بداية القصة، نبدأ بالقسم الأول الذي يؤكد فيه أن ما النصر إلا من عند الله. الله -عزَّ وجلَّ- يؤكد لنا أنه هو الذي نصر الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم-، والصحب الكرام، فعلينا أن نثق بالله -تعالى-، ونتوكل عليه لأن النصر بيده. ونكون معًا في النظر في أول السورة، نلاحظ من البداية الترتيب للمعركة كان من الله،

انظر الآيات من (5) إلى (8): (كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ) الله -عزَّ وجلَّ-، أخرج رسوله إلى هذه الغزوة بصورة غير متوقعة، وهنا ننظر إلى أقدار الله العجيبة، لو كان الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم-، وأصحابه الكرام علموا أنها حرب لكان للموضوع شأن آخر والترتيبات كانت لها شأن آخر، لكن الله -عزَّ وجلَّ- أخرج رسوله على أنه متابعة للعير، أصل خروجهم أنهم يتعرضون لعير خرجت مع أبي سفيان بن حرب لقريش إلى الشام، قافلة كبيرة، ومعلوم أنهم هم أخذوا أموال المهاجرين وفعلوا بهم ما فعلوا، فلما أتت هذه القافلة أراد النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- أن يتعرض لها، فلما سمعوا برجوع هذه القافلة من الشام ندب النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، الناس أن يخرجوا ليتعرضوا لها، فخرج معه هؤلاء الثلاثمئة وبضع عشر رجلًا، وكان معهم سبعون بعيرًا، كانوا يتعاقبون عليها ويحملون عليها متاعهم. سمعت قريش بخبرهم، فخرجوا لمنع عيرهم في عدد كبير وعدة وافرة من السلاح والخيل والرجال، يبلغ عددهم ألفًا، فوعد الله المؤمنين إحدى الطائفتين، فإما أن يظفروا بالعير أو بالنفير، المسلمون أحبوا العير لأنهم ما كانوا مستعدين؛ لقلة

ذات اليد، ولأنها غير ذات شوكة، ما فيها قتال ولا فيها أرواح، لكن الله -عزَّ وجلَّ-، أحب لهم وأراد أمرًا على أمرهم، وشأنًا أعظم من شأنهم، أراد أن يظفروا بالنفير الذي خرج فيه كبراء المشركين وصناديدهم؛ لذلك تقرأ في الآيات أن بعض الصحابة جادلوا، قال تعالى: (يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ) والله يعدنا (إِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ) والمسلمون بطبيعتهم الإنسانية يودّون أن غير ذات الشوكة تكون لهم لكن الله يريد أن (يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ) فكان ما أراد الله -عزَّ وجلَّ-، أن يستأصل أهل الباطل، ويُرِي عباده من نصر الحق أمرًا لم يكن على خاطرهم. هؤلاء الأصحاب الذين كانوا يناقشون عادوا وكانوا مع النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، وائتمروا بأمره -صلَّى الله عليه وسلَّم-.

نلاحظ أن رب العالمين يقدر للعبد أقدارًا ويوصله إلى مراتب عالية ما خطرت على باله، وربما كره هذه المراتب العالية في أولها.

فهذا كان ترتيب المعركة من الله، ترتيب هذا اللقاء من الله، وهكذا أقدار الله دائمًا، أنت تخطو تريد شيئًا، فيريد الله شيئًا آخر، ويجعل هذه الخطوة منك فاتحة لخطوات كثيرة ما كانت على بالك، وربما كرهتها، لكن الله -عزَّ وجلَّ-، يجعل فيها خيرًا كثيرًا. بعد هذا تأتي الإعانة العجيبة من رب العالمين، ويأتي من الأصحاب ما يظهر به الإيمان. يقول رب العالمين: (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ) وهكذا المؤمن، وهكذا الإيمان، في الإيمان يشعر الإنسان بأنه على صلة بالرحمن مَلجئه ومعاذِه وملاذه، يشعر دائمًا أنه كالغريق الذي يحتاج إلى غوث، وهذا ما يجب أن نربي عليه أنفسنا ونربي عليه الأجيال. نحن في الدنيا غرقى، محتاجين إلى حبل الله، تستغيث برب العالمين، تندي نداء من يكاد أن يغرق. ونسمع: (فَاسْتَجَابَ لَكُمْ) يا لفضل الله على أهل الإيمان أن عرّفهم قربه -سبحانه وتعالى-! يستغيثون فتأتي الاستجابة سريعًا، يستغيثون فيغيثهم وأغاثهم بعدة أمور: أولها: أن الله أمدهم من الملائكة ألفًا، يردف بعضهم بعضًا. وهنا ننظر لمهمة عظيمة من المهمات التربوية التي نعيشها في حياتنا كلها، وليس فقط في موضوع القتال أو الجهاد أو النصر أو

العزة، ربنا يقول عن هذا الإمداد: (وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى) يعني ما جعل إنزال الملائكة إلا بشرى، لتستبشر بذلك نفوسكم، ولتطمئن به قلوبكم، هم ألف ونحن معنا من الملائكة ألف (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ)، وإلا فالنصر بيد الله وليس بكثرة عَدد ولا عُدد، الله عزيز لا يغالبه مُغالب، بل هو القاهر فوق عباده، الذي يخذل من بلغ من الكثرة وقوة العدد والآلات ما بلغوا، عزيز، حكيم، يقدر الأمور بأسبابها، الأشياء لها أسباب؛ فلذلك الملائكة نزلت، لأن كل شيء له سبب، فيكون القتال هنا لتطمئن قلوبكم، أعطاكم السبب. فالله يريد أن تكونوا أصحاب قوة عزيمة، وإلا فالحقيقة أننا إذا عملنا عملًا، وأقدمنا على خير نتيقن بأن معنا قاهر الكون، فإذا كانت هذه الفكرة متمكنة من قلوبنا سترفعنا، وستجعلنا أقوى الناس، وستجعلنا هذه الفكرة -أن ربنا معنا- قادرين على صعاب الأمور.

وهنا نفهم أن هناك خطأ في الفهم يرد حين نأمر أحدًا بالتوكل، يظن منا أن المطلوب منه أن يترك عنه الأسباب، بل **أنت حين تتوكل على الله في حقيقة شأنك تندفع وأنت**

تشعر بقوة الله معك، حين تتوكل تصبح عندك قوة عزيمة،

هذه هي المهمة التربوية التي يجب أن نربي عليها أبناءنا: أن يختاروا أنفع الأشياء ويتوكلوا على الله. التوكل ليس كما يظنه المنتكسون، الجاهلون، الكسالى، اليائسون من روح الله، حين يتصورون أن التوكل ذريعة إلى البطالة، لا والله! بل هو «احْرِصْ علَى ما يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ باللَّهِ»[1]. فالسنة الكونية أن يتقدموا، ويَقبلوا أن يواجهوا العدو، هذه سنة كونية، أنك ستواجه نفسك أمام العدو. والإيمان هو الذي جعل في نفوسهم قوة العزيمة وشعروا بأن قاهر الكون معهم، فكانت هذه هي سبب النصر (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ)، ثم ذكّرهم رب العالمين بنعم أخرى جعلها سببًا لنصرهم، ودليلًا للعناية بهم. هذه المعجزة: أن النعاس يغشّيهم، الله يلقي عليهم النوم، سبحان الله! دليل الأمن الذي وضعه الله -عزَّ وجلَّ-، في قلوبهم؛ ولذلك أنت تكون في قلق، ومقدم على أمر أو خائف من شأن، ثم يقوى توكلك على الله، وثقتك به، وطمأنينتك له، وتعلم أنه لن يخذلك، فتشعر ببرودة في فؤادك تشابه هذا النوم الذي أُلقي عليهم، للأمن الذي كان

---

[1]() أخرجه مسلم (2664).

عندهم. الخوف أسهرهم، سبحان الله، شيء عجيب! ونعيش في هذا في حياتنا دائمًا، الخوف أسهرهم، كانوا خائفين لكثرة عدوهم، فأسهرهم الخوف، قلقوا في ليلهم، وهذا يحصل حين نصبح وعندنا مهمة أو قلقين من أمر، وهذه الأمور لا تخلو منها الدنيا أبدًا، فإذا واجهت الأمر وجدت في نفسك هدوء، سبحان الله! الخوف أسهرهم فألقى -تعالى- عليهم النوم فأمنوا واستراحوا، سبحان الله! وهذا نفسه كان يوم أحد أيضًا.

مع هذا الأمر العظيم الغريب، لكن الذي نعيشه بفضل من الله، أنزل أيضًا الله -عزَّ وجلَّ-، عليهم من السماء ماء، ولك أن تتصور هذا المطر من أجل أن يتطهروا، يصبح لهم اغتسال من الحدث الأكبر، وكأنه في منزلة الوضوء من الحدث الأصغر، فطهرهم في ظاهرهم، وأيضًا طهر بواطنهم من وسوسة الشيطان. كانوا هم على الرمل، ولا يتمكنون من المحاربة في الرمال، ومع فقد الماء كان الشيطان يقول لهم: "كيف ستفعلون؟ ما عندكم ماء ترشون به الأرض بحيث تثبت خيلكم عليه" فأزال الله وسواس الشيطان عنهم، فإزالة أسباب وسواس الشيطان كان طهارة لقلوبهم،

طهارة باطنة، فكملت لهم الطهارتان: طهرت أبدانهم بالمطر، وطهرت قلوبهم من وساوس الشيطان، ومن الخواطر السيئة. فانظر إلى عناية الله؛ قد ندخل أمرًا لسنا راغبين فيه، نلاحظ ترتيب المعركة: أخذهم اللحظة الأولى خارجين إلى شأن، ثم نقلهم إلى شأن آخر، ثم في هذا الشأن الآخر لما سلّموا لرب العالمين رفعهم وأعطاهم من الآيات ما بقيت إلى يومنا وتبقى إلى نهاية الزمان، آيات عظيمة!

وأيضًا الله -عزَّ وجلَّ-، ربط على قلوبهم وقوّى ثقتهم وأزال خوفهم وثبّت أقدامهم على الرمل، وثبّت أفئدتهم على الحق. فالله أنزل عليهم المطر، كما ذكر المفسرون: "فأطفأ به الغبار وتلبدت به الأرض، وطابت نفوسهم وثبتت به أقدامهم" وهذا أيضًا بأن أنزل الله -عزَّ وجلَّ-، على قلوبهم الصبر، وقوة القلب، كله من عند رب العالمين.

ثم أيضًا يشير الله -عزَّ وجلَّ-، إلى نعمة خفية أظهرها الله لهم ليشكروه عليها، وهي علاقتنا بالملائكة الكرام، وهذا ينقلنا إلى مهمة تربوية خطيرة، وهي الإيمان بالملائكة والاعتناء بالإيمان بهم، وكيف أن لهم مع حياتنا اختلاطًا،

والله -عزَّ وجلَّ- جعلهم لأهل الإيمان سببًا للتثبيت، (فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا)، فالله أرسل الملائكة رِدءًا للمسلمين، يقوونهم، ينصرونهم، يثبتونهم، وكما هو معلوم «إن للشَّيطانِ للمَّةً بابنِ آدمَ ، ولِلمَلك لَمَّةٌ ، فأمَّا لمَّةُ الشَّيطانِ فإيعادٌ بالشَّرِّ وتَكْذيبٌ بالحقِّ ، وأمَّا لمَّةُ الملَكِ فإيعادٌ بالخيرِ وتصديقٌ بالحقِّ»[2] تصور هذا المعنى. فنزول الملائكة له شأن عظيم، ألقوا في قلوب المؤمنين ما يثبت المؤمنين ويدفع الوساوس، وأيضًا قاتلوا معهم، كان حضورهم مدادًا وعونًا، والله قال: (سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ)، وعلّم المؤمنين أو الملائكة، فقال: (فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ) علّمهم طريقة القتال، اضربوهم كيفما اتفق، سواء كان هذا للملائكة أو للمؤمنين، وأخبر -سبحانه وتعالى- لأي سبب كان هذا الأمر.

لنركز في مهمتنا التربوية، نحن لاحظناها من جهة أن الأسباب الله -عزَّ وجلَّ-، يعطيها للخلق، وهو -سبحانه وتعالى-، الذي ينفع بها ويجعل لهذه الأسباب قوة فوق ما يتصور الإنسان، هذا متى ما توكل الإنسان على الله ومتى

---

[2] () أخرجه الترمذي (2988).

كان في قلبه ثقة بالله؛ لذلك هنا سننتقل لنؤكد على هذه المهمة، في نفس السياق، ونصل إلى هذا التقرير المهم في الآية السابعة عشر، حيث يزداد بيان موضوع الأسباب؛ لأن رب العالمين يبين هنا أنكم لم تقتلوهم بقوتكم، ولكن الله قتلهم بما جعله من أسباب، فجعل أسبابًا لقتلهم بنصرتكم وخذلانهم، وألقى الرعب في قلوبهم، وقوى قلوبكم ، وأمدكم بالملائكة، وأذهب عنكم الفزع والجزع.

فإذًا هذه الأسباب التي تراها محيطة بك، في حقيقتها أنها لا تنفع إلا إذا نفع الله بها، وربما كان نفعها أعظم من المعتاد بسبب قوة إيمان العبد. فكلما زاد العبد قوة في إيمانه ويقينه وثقته وتوكله على الله، كان السبب أنفع؛ ولذلك يقول الله -عزَّ وجلَّ-، لرسوله: (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ) في الحقيقة أنك ما رميت، وسنرى معنى هذه الآية بعدما نفهم هذه القصة. ما المقصود بقوله تعالى: (وَمَا رَمَيْتَ)؟ لهذه قصة ذكرها أهل السير، وهي أن النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، جاءه جبريل -عليه السلام-، وأمره أن يأخذ حفنة من التراب، قال جبريل للنبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-: "خذ قبضة من التراب، فارم

بها في وجوههم"، فأخذ نبينا -صلَّى الله عليه وسلَّم-، حفنة من الحصباء فاستقبل بها المشركين ثم قال: «شاهَتِ الوجوهُ»[3] ثم نفحهم بها، ثم أمر أصحابه فقال: "شدوا عليهم في القتال"، فكانت الهزيمة للمشركين، وفي السير قيل: "إنه لم يبقَ مشرك إلا أصابه شيئًا من الحصى في عينه وكان هذا سبب انشغالهم فانهزموا." فلتصور هذا الأمر، تصور كيف يأتي سبب بسيط جدًا، وهذا السبب يأتي من ورائه نجاح أمر، أو صرف شر، أمور عجيبة! ورب العالمين يقول: (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ) وهذا شأنه واضح، ليس المقصود أن النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، ما حمل الحصباء وألقاها، لكن كيف وصلت إليهم وكيف أشغلتهم؟

انظر إلى نفس الفكرة، كيف أن الله أمر جبريل أن يقول للنبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-: "افعل هذا" هذا معناه أن كثيرًا من الأفكار يلقيها الله في روعنا بعد توكل وانكسار، وبعد سؤال الله، فيلقي الله -عزَّ وجلَّ-، في روعنا ما يهدئ أنفسنا ويكون خيرًا لنا، ويجعله الله نافعًا بصورة أكبر مما نتصور. خصوصًا حين تسمع في السير "إن النبي -صلَّى الله عليه

---

[3]() أخرجه مسلم (1777).

وسلَّم-، وقت القتال دخل العريش وجعل يدعو الله ويناشده في نصرته، فجاء جبريل فأمره أن يأخذ حفنة من تراب ويرميها في وجه المشركين، فأوصلها الله إلى وجوههم، فما بقي منهم واحد إلا وقد أصاب وجهه وفمه وعينه منها" فكانت هذه لحظة الانكسار فانهزموا، فرب العالمين يقول لنبيه: "ليس بقوتك حين رميت التراب أوصلته إلى أعينهم، إنما أوصله الله إليهم بقوته وقدرته، سبحانه وتعالى." وكل هذا بلاء للمؤمنين، ما حصل هذا إلا ليبتلي المؤمنين بالكافرين، ويكون هذا كما سماه رب العالمين: (بَلَاءً حَسَنًا). الله قادر على نصر المؤمنين على الكافرين من دون أن يباشر المؤمنون قتالًا، بدون أسباب، وهذا لا يناسب حكمة الله، إنما لا بد من السير على سنن الله الكونية في نصرة دين الله، ثم الله -عزَّ وجلَّ-، يجعل لأقل سبب أعظم أثر. الله يريد أن يمتحن المؤمنين، ويوصلهم بهذا الامتحان إلى أرفع الدرجات وأعلى المقامات، ويعطيهم أجرًا حسنًا.

أنت اجتهد، وهذا مثلما ورد في سورة المائدة، لما أمر الله موسى -عليه السلام-، أن يأمر قومه أن يدخلوا فيقاتلوا

عدوهم، فما قبلوا، قالوا: "عددنا كذا، ووضعنا (اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)"، وفي مقابل ذلك هنا نرى موقف الأصحاب الكرام، كيف أنهم خرجوا مع رسول الله، وبذلوا جهودهم، وبأدنى سبب كانت أعظم نتيجة، هكذا في الدنيا، توكل على الله وخذ بأدنى سبب؛ وستجد أعظم نتيجة، وستجد الأمور مرتبة (إِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ) يعلم سرك ونجواك ودعاءك ورجاءك، ويعلم ما في قلبك من النيات الصالحة، فيقدر -عزَّ وجلَّ، وهو العليم- عليك أقدارًا موافقة لعلمه وحكمته، سبحانه وتعالى. هذا الشأن لا يقلقك.

وهنا نؤكد أن موضوع الأسباب من المهمات التربوية الخطيرة جدًا خصوصًا ونحن في عصر المادية، أخذت الناس الأسباب حتى أنهم ظنوا أنها فاعلة، وانظر كيف يخبرنا رب العالمين أنه رتب لهذه المعركة، وأنزل الملائكة، وجعل حتى موعد ومكان المعركة، حين تتقدم في قراءة السورة، ترى كيف أن هؤلاء كانوا بالعدوة الدنيا وأولئك في العدوة القصوى، والركب أسفل، (وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ) وكل هذه الأماكن كان كل واحد له شأنه، سبحان

الله، والسورة بيّنت النتيجة. كل هذه الأسباب (وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)، (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ) هذا بلاء، والأسباب تأخذها وأنت معتقد أن الله ينفع بها، من أقل سبب تأخذه يجعل الله خيرًا كثيرًا.

وهنا ننقل جزءًا يسيرًا من كلام ابن القيم -رحمه الله- حول موضوع الأسباب، نختم به:

"فالناس في الأسباب لهم ثلاثة طرق:

إبطالها بالكلية. ما يجعلوا للأسباب قيمة، وهذا كلام باطل طبعًا.

وإثباتها على وجهٍ لا يتغير، ولا يقبل سلب سببيتها ولا معارضتها بمثلها أو أقوى منها، وهذا قول متطرف أيضًا، أنه يوجد سبب؛ إذًا توجد نتيجة، كما يقوله الطبائعية والمنجِّمون والدهرية. واضح أن كلا الطرفين متطرف: إبطالها بالكية أو إثباتها على وجه لا يتغير.

والثالث: ما جاءت به الرسل ودلَّ عليه الحس والعقل والفطرة: إثباتها أسبابًا، وجوازُ، جائز إذا وجدت نجد النتيجة، ـ بل وقوعُ ـ سلْبِ سببيتها عنها إذا شاء الله، يمكن أن يكون السبب موجودًا، لكن تُنزع السببية إذا شاء الله، ودفْعها بأمور أخرى نظيرها أو أقوى منها، إذا وجد السحاب سببًا للمطر، ربنا يرسل الريح فتفرق هذا السحاب وينتهي الأمر، مع بقاء مقتضى السببية فيها، سحاب ينزّل مطرًا لكن ربنا يأتي بريح تفرقه فانتهى الأمر.

كما تُصرَف كثير من أسباب الشر بالتوكل والدعاء والصدقة والذكر والاستغفار والعتق والصلة، وتُصرَف كثير من أسباب الخير بعد انعقادها بضدِّ ذلك، فللّه كم من خير انعقد سببه ثم صُرِف عن العبد بأسبابٍ أحدثَها منعت حصولَه -الخير- وهو يشاهد السبب حتى كأنه أُخذ باليد؟ يكون السبب في يدك، قريب، أنت تتصور النتيجة لكن ربنا يأتي بسبب يصرف هذا، ويمكن أن يكون السبب الذنوب، أو الاعتماد على السبب، ترك التوكل على الله، وكم من شر انعقد سببه ثم صُرف عن العبد بأسباب أحدثها منعت حصولَه؟ ومن لا

فقه له في هذه المسألة، فلا انتفاع له بنفسه ولا بعلمه، والله المستعان وعليه التكلان."

نلخص هذه المهمة التربوية في أن سورة الأنفال العظيمة تحدثنا أن لكل شيء سببًا، وأن الله قد جعل في الكون أسبابًا توصل إلى الغايات، وهذا من سنته، سبحانه وتعالى. لكن ما موقفك من السبب؟ نثبت السبب ونقول: "هو يحصِّل النتيجة إذا شاء الله، وربما وقعت أسباب جعلت السبب الضعيف عظيم الأثر، وربما وقعت أمور جعلت السبب القوي الذي كأنك آخذه بيدك، تأخذ النتيجة، تجعله لا قيمة له" فالله أعلم في تدبيره كيف يكون هذا الأمر. لا تتصور أنها معجزة من السماء دائمًا، بل تأتي أسباب لطيفة، في سورة الأنفال، حفنة من تراب يرشها النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، يرميها بهم فيوصلها الله إلى وجوههم جميعًا فتشتغل أعينهم بذلك، فيشد أصحاب النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، فتكون الهزيمة، سبحان الله العظيم!

الله له ملك السماوات والأرض، كيف لا تثق فيه وتتوكل عليه؟! حين يخيفك أحد بما يملك من أدوات أو من قدرات،

أنت مؤمن بأن هذه الأسباب كلها تتعطل إذا شاء الله، فالواجب التوكل على الله، والإتيان بالسبب الرئيس الذي بعده تنفع بقية الأسباب: الإيمان. ولذلك دائمًا نصور هذه القضية كالتالي: لو كتبت أكبر رقم تعرفه؛ مليار، عشرة مليار، ستضع واحدًا وأمامه أصفار، فلو وضعت يدك على الواحد ومحوته، لن تجد إلا أصفارًا، اعتبر الواحد هذا الذي جعل الأصفار لها قيمة هو الإيمان، الإيمان هو الذي يجعل لهذه الأصفار قيمة، يجعل للأسباب التي خلقها الله وجعلها موجودة لها قيمة. كل الأسباب كأنها صفر والإيمان يجعل لها قيمة، ينفعك الله بها ويجعلها أنفع مما تتصور. قد يقال: "لكن أهل الكفر ما عندهم إيمان ويأخذون بالأسباب ويحصل لهم مرادهم" نعم، الأمر بيد الله، يجعل الله للأسباب نتائج، لكن أنت يا مؤمن لك شأنك الخاص، أنت يا مؤمن تخرج ومعك الإيمان ومعك السبب الضعيف، لكن الإيمان هو القوي، ترى كيف ينزل الله عليك الملائكة، ترى كيف يفعل الله بك، والحمد لله رب العالمين.

نؤكد على أن الإنسان سيكون في عافية من دينه، لو وضع الأسباب في مكانها وعرف أنها بيد الله، وعرف أن هذه الأسباب يأتي عليها ما يدفعها ويمنعها، أو يأتي ما يعظّمها، ويأتي بنتائج ما كانت على البال. فالإيمان الإيمان، موضوع الأسباب من المهمات التربوية التي حصل فيها ما حصل من المشاكل بسبب هذه المادية التي يعيشها الناس، نعوذ بالله من فساد الرأي، نعوذ بالله من الارتداد على الأعقاب، نعوذ بالله أن يخدعنا ويغرنا الشيطان، اللهم نجِّنا ونجِّ بنا يا رب العالمين.